مخطوطة مجهولة عن الشام

الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية

لمحمد بن محمد صصري

عادل أبو شنب

بين يدي كتاب ، ما أظن أن كثيرين يعلمون عنه شيئاً . قلائل هم الذين عرفوا هذا الكتاب ، وأقل منهم من عرفوا المخطوطة التي ولد الكتاب منها .

وقد يكون غريباً كل الغرابة أن يجهل المعنيون ما يتعلق بالمخطوطة — الكتاب ، لكن هذا الجهل يقود ، ودونما مواربة ، إلى حقيقة هائلة ، وهي أن كثيراً من مخطوطاتنا العربية يعيش على رفوف المكتبات والأكاديميات في مختلف بقاع الدنيا ، دون أن نعلم عنه شيئاً كثيراً أو قليلاً ، وهو جهل لاعذر فيه ، بعد أن اتسعت الاتصالات الثقافية بين الأمم ، وبعد أن قرّبت وسائل المواصلات أطراف العالم بعضها ببعض ، وبعد أن مد العلم العالم بوسائل تقنية مدهشة تستطيع أن تنقل اليك المخطوطة في « فيلم »(١) صغير .

(١) اسلوب نقل الوثائق والمخطوطات بواسطة الميكروفيلم أصبح شائعاً .

عني بتحقيق الكتاب وترجمته ونشره الدكتور وبليم م. برنبر استاذ الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا – بركلي ، بعد أن رجع إلى المخطوطة المحفوظة في مكتبة بودليان – اكسفورد(٢) والتي تحمل العنوان التالي : « الدرة المضية في الدولة الظاهرية »(٣) لمحمد بن محمد بن صصرى . ولعله من المؤسف ألا يصل إلي من هذا الكتاب إلا أحد جزئيه ، لكن هذا الجزء ليس بالقليل ، فهو يقع في مئتين وخمس وستين صفحة من القياس الكبير ، غير المقدمة التي كتبها المحقق ، والفهرس وصفحات العناوين التي تدل على من طبع الكتاب أو اسهم فيه ، ويعالج مواضيع مختلفة تمس دمشق خاصة والمنطقة عامة . خلال السنوات الثماني الممتدة ما بين عامي ١٣٨٩ و ١٣٩٧ ميلادية(٤) .

وقبل المضي إلى مايضمه الكتاب من معلومات ، يطيب لي أن أتوقف عند المقدمة التي كتبها المحقق ، لا لأهميتها في ايضاح بعض المعلومات الواردة في الكتاب ، على عادة المقدمات التي تكتب لمثل هذه الكتب ، بل لأنها ترسم لنا طريقة التحقيق نفسها ، أو طريقة التعامل مع مخطوطة قديمة . فالمحقق يعترف بالركاكة والضعف في انشاء هذه المخطوطة ولا يرى ذلك غريباً ، ففي تلك الفترة آلت اللغة العربية إلى الخلل والفساد « وشاع فيها من الغثاثة والعامية ماشاع » » غير أن هذه الظاهرة نفسها – ظاهرة الضعف الانشائي التي يتصف بها كذلك أسلوب « الدرة المضيئة –

(٢) مخط . ش . لود ١١٢ – مكتبة بودليان ، اكسفورد .

(٣) يحمل الكتاب عنواناً مختلفاً بالانكليزية وهو :

Achronicle of Damascus 1389 - 1397
Edited And Annotated by william M. Brinner

(٤) تعادل سنة ١٣٨٩ ميلادية سنة ٧٩١ هجرية .

لا بد أن تثير مسألة هامة يواجهها جميع المعنيين بتحقيق أي أثر تاريخي من آثار عصر الانحلال : أيحتفظ الباحث بصيغة مخطوطة كما عثر عليها . ويناولها للقارئ على حالها دون أن يمس قلمه بالتعديل والتصحيح ما تخللها من ركاكة وفساد ؟ أم يؤخذ بروعة البيان وينقاد لاغرائه فيستخدم وسائله للتبديل والتحوير واخراج صيغة تلك المخطوطة اخراجاً قوياً ، يقربها من عالية الفصحى ؟ » (٥) . ويبدو أن المحقق قد لجأ إلى الاسلوب الأول فأبقى النص على حاله « باستثناء تعديلين طفيفين لم يمسا جوهر النص إطلاقاً ، وكان من اللازم اجراؤهما : الأول — تصحيح الاخطاء الاملائية الواردة في المخطوطة لتنسجم بذلك مع الانماط اللغوية المألوفة وقد ألحقنا بآخر هذا الكتاب ثبتاً كاملا بها يمكن الرجوع إليه ،والثاني — تصحيح بعض الاخطاء النحوية والنسخية العارضة التي قد يؤدي استبقاؤها في النص إلى شيء من التقصير والغموض »(٦).

وثمة أمر آخر لابد من التوقف عنده وهو أن المقدمة المذكورة تشير إلى قسمين في معالجة المخطوطة ، أولهما انكليزي وثانيهما عربي ، مما يدل على أن المخطوط قد ترجم إلى الانكليزية وظهر في كتاب مستقل ، وأضيف إليه بحث يتعلق بـ « لغة المخطوطة » لم يظهر في الكتاب العربي وإن كان المحقق يؤكد « على حقيقة هامة وهي أن الكتاب بقسميه

(٥) من مقدمة الكتاب . ولنلاحظ أن المحقق أستخدم كلمة « المضيئة » — بوضع همزة على نبرة — في حين أن العنوان الموجود على غلاف الكتاب قد أستغنى عن الهمزة ، وجعل الكلمة « المضية » بتشديد الياء ، وهو الأصيل ، لأنه يعطي جملة مسجوعة ، على عادة كتاب تلك الفترة .

(٦) من مقدمة الكتاب .

الانكليزي والعربي يشكل وحدة تامة لاانقطاع بينها ، ومن هنا لم نجد مبرراً إلى تكرار الملاحظات الواردة في جانب من الكتاب باعادة اثباتها في الجانب الآخر »(٧) مما حرمنا من الاطلاع على هذه الملاحظات لأننا لم نستطع ، حتى الآن ، الحصول على النص الانكليزي الذي يضم تعريفاً « بالاعلام والامكنة ، ورد الاقتباسات إلى مصادرها ومناقشة ترجمة الغامض من مقاطع النص »(٨) كما جاء في المقدمة المذكورة .

وهناك ، أخيراً مسألة لابد من ذكرها ، وهي خلو الكتاب من أية ترجمة لحياة مؤلف المخطوطة محمد بن محمد بن صصري(٩) وربما كان في القسم الانكليزي شيء من هذا ، وإن كنا نرجح بأن المخطوطة والكتاب لم يشرا إلى أية معلومات هامة في هذا الصدد ، باستثناء ماجاء في المقدمة من أن المؤلف « لم يتوخ هذه السلامة — أي سلامة اللغة — ولم يقصد إلى مجاراة البلغاء في تأنقهم وافتنانهم ، وانما صرف همه إلى غاية أخرى هي تدوين حوادث عصره كما انتاهت إليه(١٠) » .

* * *

قلنا إن الفترة التي يعنى بها الكتاب تمتد أقل من عشر سنوات من أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، أو الثامن الهجري ، وهي فترة

(٧) من مقدمة الكتاب .

(٨) من مقدمة الكتاب .

(٩) أضيفت الألف للكلمة « بن » في أحد عناوين الكتاب ، بينما حذفت من العنوان الرئيسي على الغلاف .

(١٠) من مقدمة الكتاب .

حفلت بالأحداث الجسام ، لعل ابرزها وصول الأنباء عن انتصارات تيمورلنك في الشرق ، واستعداد العالم الاسلامي لملاقاته ، وتنازل السلطان برقوق وحبسه ، وظهور قائد يدعى منطاش ، مد سلطانه على معظم بلاد الشام لفترات مختلفة ، وحكم برقوق الثاني ورحلته إلى الشام ، مع أخبار عن القحط والقتل واقترافات الحكام ، والفيضانات والحروب بين حكام المناطق والحرائق الكبيرة التي شبت) . وما يلفت النظر في هذه المعلومات التي دونها المؤلف محمد بن محمد بن صصري عن حوادث عصره ، أنه أوردها « في اطار ممتع من الشعر والفكاهة ، وبأسلوب موشى بالآيات والأحاديث المقتبسة »(١١) مستخدماً التاريخ « لخدمة الأهداف الدينية(١٢) » وهو أسلوب أراد منه أن يذكر من يصم أذنيه عن الحق بما في التاريخ الإسلامي من عبر تتماثل من حيث مضمونها مع ما يورده من وقائع .

وإذا كان عسيراً علينا تلخيص مافي الكتاب من وقائع ومن قصص تاريخية أقحمها المؤلف على وقائعه ؛ فانه ليس عسيراً تعداد بعض الوقائع المثبتة في الكتاب ، وايراد بعض قليل من هذه الوقائع . فالكتاب يتحدث عن : قومة علي برقوق ، ووقعة خان لاجين ، ونهب دمشق ، وتنازل برقوق وحبسه ، ووقعة شقحب وحصار دمشق (١٣٨٩م — ٧٩١ ﻫ) ووقعة شقحب الثانية وحكم منطاش في دمشق وحكم برقوق الثاني ووقعة حمص ووقائع أخرى مع منطاش (١٣٩٠ م — ٧٩٢ ﻫ)

(١١) من مقدمة الكتاب .
(١٢) من مقدمة الكتاب .

وتجديد المنازعات مع منطاش وتراجعه ونهب الصالحية ، وحكم سودن باق الشرير في دمشق وعودة برقوق لدمشق واعدام المناطشة (١٣٩١ م — ٧٩٣ هـ) وعصيان في القلعة وحريق في دمشق وعقاب اليهود لحرق المسجد ومقاتلة منطاش في الشمال وحكم منطاش في الباب (٩٢ — ١٣٩١ م — ٧٩٤ هـ) ووقعة مع العرب في حماه ، وقتل منطاش وانتصارات تيمورلنك في الشرق ، والاستعدادات للقائه (١٣٩٢ م — ٧٩٥ هـ) . . إلى آخره .

ومن وقائع الكتاب في السنة الأولى المؤرخ لها ، هذه الأسطر المثبتة حرفياً :

« . . وفي هذه السنة تواترت اخبار تمرلنك ، لعنه الله ، وانه أخذ توريز ، وجفلت قلوب الناس منه ، وان معه خلق كثير ، وانه قاصد بلاد الشام ، والناس معذورين . فان جرى على دمشق وأهلها أمور لمادخلها عسكر هلاكون ، قبحه الله ، سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وجرى عليهم مرة ثانية اصعب من نوبة هلاكون وقاست أهل دمشق من المغل شدائد كثيرة ، لمادخل اليها عسكر قازان في سنة تسع وتسعين وستمائة ، فلما سمعت الناس بتمرلنك وانه اخرب توريز وانه قاصد الشام خافوا كثيرا ، فان الفتن ما تظهر الا من الشرق ، وقد اجاد المعمار المصري حيث يقول شعراً :

بي من بني الشرق في وجهه
يشرق مثل البدر بل أحسنا
وقده تهتز من لينه
مثل اهتزاز الغصن بل ألينا

سألته حين بدا فاتنا
عن ارضه أطرق لكن رنا
يرمي الى الشرق بأحاظه
فقلت والفتنة من ها هنا

وعن نافع ، عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال :

« اللهم بارك لنافي شامناويمننا»قال رجل: «ومشرقنا يا رسول‌الله ؟ »

فقال : « من هناك يطلع قرن‌الشيطان ،وبها تسعة اعشار السحر ، وكل بدعة ومنحة غالبها من بلاد الشرق . » .

وفي هذه السنة جاء الجراد الى دمشق ، وأتلف شيء كثير للناس . وفي هذه السنة وقع فناء في القاهرة حتى وصل الى عشرين الف كل يوم وأكثر ، وهذا اختصار على ما سمعت(١٣) .

ومن وقائع الكتاب قول المؤلف :

« . . ثم استهلت سنة اربع وتسعين وسبعمائة ، اللهم اجعلها سنة مباركة على المسلمين ، وكان اولها يوم الاثنين ، وكانت الاسعار في دمشق عالية ، والناس تحت لطف الله تعالى فنسأل الله تعالى أن يرد العاقبة الى خير ، ويرخص أسعار المسلمين ، ولما كان يوم الثلاثاء سابع شهر الله المحرم حضر بريدي الى نائب الشام الأمير بطا وعرفه أن عنقاء قد قتل ، وسببه ان السلطان أرسل له فداوية قتلوه . واستراحت

(١٣) الصفحة ٢ والصفحة ٣ .

المسلمين منه كثير ، فأنه كان قد اسرف وزار وأخرب بلاد حوران وكان ما يصطلى له بنار ، وعربه أنحس العربان ، وكان قتلته رحمة لبلاد المسلمين ، ولو عاش كان أتعب الناس ، فانه كان منطاشي ، وانضاف اليه كل فاجر ، وكل زنديق ،وكل نحس من قطاع الطريق(١٤)

ومن وقائع الكتاب قول المؤلف في صفحة أخرى :

(وأما المردان فما يحتاج حالهم الى بيان ، في هذا الزمان ، وليس الخبر كالعيان ، كل واحد منهم يحب أن يكون معشوق ، ويتمشى في السوق على أهل الفسوق ، وقد كانت الصبيان أحيي من البنات ، فانعكست الأمور وتغيرت الدهور ، وانكشف ما كان مستور ، حتى صاروا بالسقال والملابس في زي العرائس ، يأتون الفاحشة مجهر ، ولا ينكر أحد عليهم منكر ، وأكثر الناس قد لبسوا ثياب العار ، وافتخروا بالأوزار ، ولا احد على ولده يغار ، وقد أبدلوا اعراضهم في هوى اغراضهم وهذه امورا تقشعر منها الجلود ، ويشيب منها المولود ، وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم نكن نراه ، وسمعنا فيه مالا سمعناه ، وأبصرنا عجائب وشاهدنا غرائب ، فلهذا قلت الارزاق وكسدت بضائع الاسواق ، وقل نزول الغيث وتعطلت اسباب الناس وقست قلوب الملوك وتجبر الغني على الصعلوك(١٥) » .

هذا هو الكتاب المخطوطة الذي أحببنا أن نقدمه للقراء ، وثمة عدد من الملاحظات على هذا الكتاب الهام . نوردها دون أن نسجلها حسب أهميتها بل حسب تواردها إلى الذهن :

---

(١٤) الصفحة ١١٠ .

(١٥) الصفحة ١٦٤ .

الملاحظة الأولى : دوّن المؤلف حوادث عصره السياسية والاجتماعية والدينية بلغته هو ، وهي اللغة التي كانت متداولة في تلك الفترة ، دون أن يتفنن في ذلك ، متوخياً جوهر الحادثة التي يدونها دون الالتفات إلى الزخرف اللفظي ، وتقاليد الكتابة بالعربية ذات التاريخ المضيء .

الملاحظة الثانية : استهدف المؤلف من تدوين الحوادث واقحام الآيات والأحاديث والقصص والعبر عليها ، خدمة الدين الاسلامي والوقوف إلى جانب الحق والعدالة ، ومحاربة التعسف والظلم والفساد .

الملاحظة الثالثة : لم يكن المؤلف محايداً في تدوينه لحوادث عصره ، بدليل حملته على منطاش والمناطشة — مثلا — ، وهذا الموقف لايعني أنه كان صنيعة أحد الحكام ، ولكنه يعني أنه لم يكن مؤرخاً يستهدف التأريخ كعلم وكفن ، وانما يستهدفه كهواية شخصية ، ذات هدف وفائدة محدودين .

الملاحظة الرابعة : تدل استشهادات المؤلف على سعة اطلاع والمام بفنون الشعر والأدب والقصص وعلى تمكن من العلوم الدينية ، وهذه الاستشهادات لاتنسجم من حيث تركيباتها اللغوية واللفظية مع النص ، مما يعني أن المؤلف قد توخى الكتابة باللهجة الدارجة في تلك الفترة ، حتى يفهم من قبل عامة الناس ؛ أو مما يعني أن المؤلف قد استعان بالاستشهادات نقلا عن كتب ومخطوطات متوفرة بين يديه .

الملاحظة الخامسة : حفل النص بأخطاء نحوية واملائية ، من الصعب تجاوزها من قبل المحقق (الا في حالة ترك الوثيقة التاريخية على حالها

كما فعل محقق الكتاب الانكليزي) لكن هذه الأخطاء اشارة بارزة إلى « واقع اللهجة الدمشقية وخصائصها العامة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي » (١٦) .

الملاحظة السادسة : يعطي النص بحالته هذه ، وكما تركه لنا محمد بن محمد بن صصرى الانطباع الفوري عن نفسية المؤلف وأفكاره وروح العصر الذي عاش فيه ، مما يخدم الباحث في هذا الميدان .

الملاحظة السابعة : مما لاشك فيه أن هذه الوقائع التاريخية التي أوردها المؤلف في مخطوطته والمتعلقة أساساً بدمشق . . تخلق أمام المؤرخ مناخاً مساعداً للتعرف على حقيقة الأحداث التي وقعت في تلك الفترة ، خاصة إذا ماقامت عملية مقارنة بشأنها .

الملاحظة الثامنة : يقدم النص أوصافاً ونعوتاً وحالات متميزة لبعض صانعي التاريخ ممن مروا بدمشق وأقاموا فيها وحكموها ، الأمر الذي يساعد على فهم هؤلاء ، وربط الأحداث التي صنعوها بنفسياتهم وظروفهم الخاصة بهم .

الملاحظة التاسعة : لم يقصر المؤلف اهتمامه على الأحداث التاريخية وإنما تجاوز ذلك إلى الاهتمام بالأمور المعاشية ، الاجتماعية والاقتصادية والانسانية ، للناس في دمشق . فبدا تاريخه بذلك أكثر شمولا .

❋ ❋ ❋

وبعد . . .

ان هذا التعريف لايفي الكتاب حقه ، فهو ثمين إلى درجة أنني

---

(١٦) من مقدمة الكتاب .

أهيب بذوي الاختصاص والمعنيين بمثل هذا الأمر إلى دراسته ونشره . ولعل من المعيب علينا أن ينشر هذا الكتاب في لندن ، نقلا عن المخطوطة المشار اليها ، في عام ١٩٦٣ ولاندري عنه شيئاً حتى هذا العام الذي وصلني فيه الكتاب مصادفة . أما أمر تحقيقه ونشره ، الذي جرى بعيداً عن البلاد التي تتعرض حوادثه لها ، فمسألة صارت مألوفة . وإذا كان لابد من التنويه بها ، فللحث على السبق في تحقيق مخطوطاتنا بأنفسنا .

★ ★ ★